# الجمالية الكانطية
# كتأسيس حقيقي للإستيطيقا

أ. بن حجبة عبد الحليم، جامعة وهران

**المقدمة:**

إذا صح القول أن علم الجمال لم يجد شكله حتى القرن الثامن عشر مع ((كانط I- Kant))، فمن الصحيح القول كذلك أن ذلك الشكل لم يكتشفه دفعة واحدة وبشكل كامل، فما يلاحظ عن ((كانط)) أنه استوعب ما قاله سابقيه حول فكرة الجمال إلا أنه خالفهم عندما رفض الجمالية المتعالية: جمالية نموذج النماذج ومثال المثل، لأن الجمال الحقيقي يبتدئ في الشيء دون العودة إلى تصور مثالي نحاكيه، انه يدرك مباشرة، كما خالفهم عندما أكد على استقلالية علم الجمال عن طبيعة الموضوع لأنه لن يكون علما لموضوع الشعور الجمالي كما كان يطمح ((باومغرتن Baumgarten))* وإنما علما لحالة الذات المدركة لهذا الشعور الجمالي[1].

إنها قطيعة نهائية مع الجمالية الأفلاطونية الأرسطية القائمة على مفهوم المحاكاة والتمثيل، كما إنها قطيعة مع التوجه العام لإستيطيقا ((باومغرتن))، إنها استقلالية الجميل الذي يعبر عن شعور متحرر من كل غائية، لكن هذا الانفصال والاستقلالية الذي أحدثته الفلسفة النقدية الكانطية عن الجماليات المتعالية المفارقة، عن إستيطيقا ((باومغرتن)) ليس بانفصال كعلم يهتم بتحليل الموضوع ويبحث في الحكم الأفهومى «كحكم إبستيمي عقلي منطقي يتحدد بمبادئ العقل»[2]، بل كحكم يهتم بتحديد شروط قيام الحكم الجمالي كحكم إستيطيقى ذوقي من هنا وجب أن نتساءل: ما طبيعة الحكم الجمالي في الفلسفة الكانطية؟ وما هي شروطه الفلسفية؟ وكيف تعتبر التجربة الجمالية الكانطية تأسيسا حقيقيا للإستيطيقا مقارنة بتجربة ((باومغرتن))؟

## 1 ــ طبيعة الحكم الجمالي:

يرى ((كانط)) في كتابه ((نقد ملكة الحكم)): «أن الحكم الجمالي أو حكم الذوق ليس حكما معرفيا وبالتالي ليس منطقيا، بل حكم جمالي وهو ما يعنى أن أساسه المحدد لا يمكن أن يكون إلا ذاتيا»[3]، ومعنى هذا أن الحكم الجمالي حكم متميز يختلف عن الحكم العقلي كونه غير مستمد من أي تصور كما أنه لا يمدنا بالتصورات مثل الفهم الصوري ولا بالأفكار فهو لا يتحدد مبادئ عقلية منطقية معينة كمبدأ الهوية أو مبدأ عدم التناقض.

إذا فالحكم الجمالي عند كانط حكم إستيطيقى ذوقي ذاتي مستعصيا على القياس والتحديد يعتمد على تأثير الشيء في النفس، يرجع إلى تأثير الذات لأنه «صادر عن الذوق والذوق صادر عن الرضا أو السرور الذي لا يأتي من ورائه منفعة»[4]، هكذا يصبح الجميل في إستيطيقا الحكم مستقلا عن طبيعة موضوع التمثل لشيء ما كما في نطاق مسألة المعرفة إنما هو علما لحالة الذات المدركة للشعور فالذي يقوم «بالحكم يشعر باللذة في موضوع ما وهذه اللذة لا تقوم على أي تصور للموضوع أو على تحقيق لعلة أو غرض أو عرف»[5].

إن الحكم بالجمال على شيء ما يحصل عن طريق متعة، من صورته في حد ذاته دون النظر إلى محتواه، فاللوحة تعجبني من الألوان المنسجمة فيها والارتياح يأتي من الشيء في ذاته دون النظر إلى الشيء الذي تشير إليه اللوحة، فاللذة ذاتية ومباشرة، ويمكن القول أن أهمية الجانب الذاتي في الجمالية الكانطية «يكمن في كون الإنسان لا يستطيع أن يحكم على جمال موضوع لم يسمعه أو لم يره»[6].

ولكن فكرة حيادية الإدراك الذاتية وتثمين الجميل لا تعني، أن الحكم الجمالي حكما فرديا خالصا، فإذا كان حضور الذات شيء ضروري للممارسة حكمها على الموضوع حيث تقوم بسماعه أو رؤيته أو تأمله، فان هذا لا ينفى المشاركة الكلية للآخرين في هذا الحكم.

يقول ((كانط)): «الجميل هو ما يسر كليا بمعزل عن أي مفهوم»[7]، فكون الموضوع يثير اللذة أو الألم لدى الجميع يعنى أن الحكم بأن هذا الشيء جميل يحدث عندهم جميعا «إذ لو كان الذوق شيئا فرديا تماما لاكتفى الفنان بممارسة فنه لنفسه فقط، مادام أن أحدا لن يفهمه ولن يتفق معه في الحكم على عمله»[8].

هكذا مهدت النقدية الكانطية لإستيطيقا الحكم، إستيطيقا المتعة الخالصة «متعة النـــص والشكل واللون واللحن، الذي يبحث عن الجمالية في ذاتية الجمال المحض»[9] المنـــزّه عن الغرض والمصلحة، ولكن دون فقدان المشاركة الكلية للآخر.

### 2 ــ الشروط الفلسفية للحكم الجمالي:

أراد ((كانط)) بكتابه ((نقد ملكة الحكم)) أن يقدم تأسيسا جديدا حقيقيا للدراسات الجمالية التي لم يشأ القدامى أن يرتفعوا بها إلى مرتبة العلوم الشريفة الجديرة باهتمام الفيلسوف، كما أراد أن يقدم تحليلا فلسفيا يؤكد به استقلال ملكة الحكم بالجمال عند الإنسان عن ملكة المعرفة، وملكة الرغبة، محددا الشروط التي يراها أساسية في حكمنا على الشيء الجميل[10]، والتي يمكن الإشارة إليها فيما يلى:

ـــ أولها: أن الحكم الجمالي حكما حياديا غير متحيز، مجرد من كل منفعة أو مصلحة «فالجميل موضوعي يرضي الذوق بغير أن يرتبط بتحقيق فائدة عملية أو لذة حسية، فالرضا والبهجة المستمدان من تأمل الجمال ينطويان على تحرر الإنسان من مطالبه المادية»[11].

إن الحكم الجمالي بهذا المعنى تأملي خالص، يقول كانط: «الذوق هو ملكة الحكم على موضوع ما أو نمط تمثل عن طريق رضا أو قنوط بمعزل عن أية مصلحة ويسمى موضوع هذا الرضا بالجميل»[12]. إن هذا المعنى الخالص ارتبط في تحليل كانط بالكيفية التي لا يكون فيها حكم الذوق حكما معرفيا ولا منطقيا، بل حكما جماليا ما يحدد أساسه لا يمكن أن يكون غير الذات. يقول ((كانط)): «لا بد للمرء أن يعترف بأن الحكم بخصوص الجمال الذي يختلط فيه قدر ضئيل من المصلحة هو أمر جزئي وليس بحكم ذوق خالص، ينبغي ألا يخالط المرء أي انحياز لصالح الوجود الواقعي للشيء، بل يجب أن يظل حياديا تماما بهذا الصدد»[13].

ـــ ثانيا: إن الشرط الثاني في حكمنا على الجميل في رأى ((كانط)) هو أن للجميل سمة الكلية التي تتوفر على الرضا لدى جميع الناس، يقول كانط: «الجميل هو ما يسر كليا بمعزل عن أي مفهوم»[14]، من الواضح أن الحكم الجمالي في نظر ((كانط)) حكم عام كلي يخص الجميع، والطابع الكلي فيه يعود إلى الذات لا إلى الموضوع، ففي الحكم على الجمـــيل لا يصح لأي إنسان أن يقول هذا الشيء جميل بالنسبة إليه، بل الصحيح أن يقول إن هذا الشيء جميل فالرضا بالجميل يفترض وجوده لدى جميع الناس، يقول كانط «حين يعي أحد أن رضاه بموضوع ما يلازمه بصرف النظر عن المصلحة، فانه لابد أن ينظر إلى الموضوع باعتباره ينطوي على أساس للرضا لكل الناس»[15]، ومعنى هذا أنه لا ينبغي أن يختلف الناس إزاء الجميل، كل حسب ذوقه الخاص أو ميوله الشخصية، لأن له طابعا كليا يسرى على الجميع، ويدل على ذلك ما نلاحظه من اتفاق حول روائع الجمال الفني التي تظل تؤثر في الحضارات والأجيال المختلفة برغم من زوال الظروف الاجتماعية والنفسية التي أبدعتها[16].

إن تميز الحكم الجمالي بالكلية كما نلاحظ لا يتنافى مع كونه حكم ذاتي مجرد مـــن أي تصور أو معنى محدد، فالذات وهى تعاين الجميل تشعر بالرضا من غير تصور عقلي تنتظر توافق الموضوع معه، ودون غاية تهدف إليها، إنما هو شعور خالص يكون فيه الرضا يصدق على الجميع.

ـــ ثالثا: الضرورة: إن الجميل كما يرى كانط هو «الذي يجرى التقاطه موضوعا للسرور أو الارتياح ضرورة وبدون أي تصور»[17]، وهذه الضرورة تنبع من عدم إمكانية الخروج عن الحكم

الجمالي، فإذا وصف شيء ما، بأنه جميل فلا بد أن يوافق عليه الجميع، كما أن هذه الضرورة لا تعتمد على تصورات عقلية ولا هي ضرورة عمليـــة يقول كانط: «أقول عن الشيء الذي أسميه بالملائم إنه فعلا يولد لدى لذة، أما الجميل فإن المرء يفكر بأن له علاقة ضرورية بالرضا، والحال أن هذه الضرورة من نوع خاص، فهي ليست ضرورة موضوعية نظرية يمكن التعرف عليها قبليا حيث يشعر كل شخص بهذا الرضا بالموضوع الذي أسميه جميلا»[18]، ويقول أيضا «ولا هي ضرورة عملية يكـــون فيها الرضا عن طريق مفاهيم الإرادة الخالصة النافعة كقواعد للكائنات التـــي تتصرف بحرية»[19].

إذن، فالحكم الجمالي حكم تكمن فيه الضرورة والكلية، لا يتم عن طريق الذهن لأنه ليس موضوع معرفة، ولا يخضع للأدلة المقنعة، ضرورته ليست مشتقة من التصورات وليست قطعية، بل «ضرورة مشروطة، وشرطها يفترض وجود حس مشترك أي وجود إحساس عام بين المدركين للموضوع الجمالي»[20].

ـــ رابعا: إن الجميل في الإستيطيقا الكانطية يوحى بغاية دون أن يتعلق بغاية محددة، يقول ((كانط)): «حيثما ينظر إلى غاية باعتبارها مصدر رضا فهي دائما تعزو مصلحة كأساس محدد للحكم على موضوع اللذة، ومن هنا لا يستطيع حكم الذوق أن يعتمد على أي غرضية ذاتية باعتبارها أساسه»[21]، هذا القول يؤكد على ضرورة تأسيس جمالية خالصة متحررة من كل غاية محددة، جمالية بعيدة عن الجاذبية أو الانفعال أو الدوافع الامبريقية، ولكن لما كان الحكم الجمالي قائم على الشعور باللذة «واللذة إنما تفترض توجيه الميل نحو غاية فإن حكم الذوق لا بد بالضرورة من أن يكون حكم غائية»[22]، ولكنها غائية بدون غاية تكون «اللذة فيها لذة خالصة لا علاقة لها بالحس، فاللذة في الحكم الجمالي تستند إلى التأمل الخالص، ولا تتضمن أي اهتمام بالموضوع»[23]، ما يعنيه ((كانط)) بهذا المصطلح غائية بدون غاية هو أن المتعة التي نشعر بها عند تأمل الجميل تحصل من صورته في حد ذاته دون النظر إلى محتواه وبعيدا عن تدخل أي فكرة تصورية، يقول كانط: «هذه المتعة ليست شأنا عمليا أو أمرا تابعا للتركيب الباثولوجي في الشيء وليست كذلك نتاج فكرة الخير»[24].

إذن، فالحكم الجمالي ليس تابعا لأي نظام أخر مختلف عنه، يستمد نقاوته الجمالية من ذاته، ويفسد عندما يرتبط بهدف أو مصلحة ما، أو حينما يكون في حاجة إلى الإعجاب أو الانفعال ليحدث السرور أو الرضا.

### 3-الجمالية الكانطية كتأسيس حقيقي للإستيطيقا:

إذا صح القول أن الإستيطيقا لم تصبح مفهوما معتمدا لتخريج دلالة فلسفية إلا مع ((باومغرتن))، الذي عمد إلى الارتفاع بالإستيطيقا إلى مرتبة العلم المستقل فجعلها علم المعرفة بالمحسوس، فكانت هذه الخطوة بمثابة الولادة الأولى للإستيطيقا، كما اعتبرت حدثا بالغا ذا أهمية في تاريخية الوعي الذاتي الأوربي بعامة، إلا أن المشروع النقدي الكانطي«في قطيعته النهائية مع مفهوم المحاكاة والتمثل كما ظهر مع ((أرسطو aristote))، وتجسد في عصر النهضة، وفى انفصاله عن التوجه العام لإستطيقا ((باومغرتن))»[25] شكل لحظة ميلاد ثانية للإستيطيقا.

لكن هذا الانفصال الذي أحدثته الثورة الكوبرنيكية الكانطية عن إستيطيقا (( باومغرتن)) فيما يظهر؟

– تظهر المفارقة الأولى في الإستيطيقا الكانطية من حيث أنها تشير من جهة إلى نفس الهاجس الذي وجه عمل ((باومغرتن)) من حيث تأسيس الإستتيطيقا كعلم قائم بذلته، لكن في اللحظة ذاتها تهيئ شروط الانفصال عنه. هذا من جهة، ومن جهة أخرى تبدو الإستيطيقا الكانطية بمعزل عن طبيعة موضوع التمثل، لأنها لن تكون علما لموضوع الشعور الجمالي كما كان يطمح ((باومغرتن))، وإنما علما لحالة الذات المدركة لهذا الشعور الجمالي[26].

– أما المظهر الثاني الذي يميز الجمالية الكانطية عن إستيطيقا ((باومغرتن)) هو تحديد طبيعة الحكم الجمالي الذي يستمد قيمته الجمالية من ذاته.

– أما فيما يتعلق بفكرة الكمال التي قال بها ((باومغرتن)) عندما جعل الإستيطيقا علم اكتمال المعرفة بالمحسوس فافترض أن الجمال هو أكمل درجات المحسوس[27]، رفضها ((كانط)) عندما نـــزّه اللذة الجمالية عن أي غرض أو غاية، إذ ينبغي أن نبحث عن الجمالية في ذاتية الجمال المحض.

ـــ إن الإحالة على إستيطيقا ((باومغرتن)) و((كانط)) تكشف عن الدلالة الحديثة لمصطلح الذاتية كشرط لتأسيس الإستيطيقا، ولكن المفارقة الكانطية تكمن في اعتبار «الذات مصدر ليس فقط لمعيار الحكم، بل لإمكانية الحكم نفسها»[28]، إذ هناك تلازم داخلي بين الذات وبين الشعـــور باللذة والألم، أي بين الذاتي والإستيطيقي «فالذوق يعمل في نطاق المخيلة التي تستند إلى الشعور باللذة والألم»[29].

وإذا كان هناك تلازم داخلي بين الذات والشعور باللذة والألم، فان هذا الشعور فردى وكوني في الوقت نفسه، فهو ليس شعور ذاتي خالص بل فيه من الكلية ما يجعله كوني قابل لأن يصبح موضوعا

للتواصل، ولعل القراءة المتأنية لـــ((نقد ملكة الحكم)) تكشف كيف «أن قصد كانط لم يعد موجها إلى بسط معنى الحكم الذوقي بوصفه متعلق بالجميل أو بالجليل، بل صار متعلقا بتحديد طريف لمفهوم الذوق بوصفه ضربا مخصوصا من الحس المشترك»[30].

بهذا الفهم الجديد تميزت الجمالية الكانطية، وأكدت على أصالتها وعناصر الجدّة فيها فقد نتج عن هذا البناء الجديد للإستيطيقا الكانطية مسألتان مهمتان:

– أولهما: تمثلت في الفصل بين الحكم الجمالي والإبداع الفني كموضوع جوهري للإستيطيقا التي تتأسس في أولويتها العلمية على الحكم لا على الإبداع، ذلك أنها لا تهتم بالجميل كموضوع تحلله وتمثله بل تهتم به كعلم تحدد فيه شروط الحكم الجمالي[31].

– أما المسألة الثانية فهي الأخرى تقوم على الفصل بين الجمال والجمال الفني، من حيـــث كون «الأول حكم الذوق الخالص لأنه لا يعتمد على تصور مسبق لما يجب أن يكون عليه الجميل، على العكس من الثاني الذي يعتمد على تصور مسبق ويحد من قدرتنا التخيلية الحرة»[32]، من الواضح أن الجمال الحر هو الجمال الذي يعتبره ((كانط)) خالص ينصب عليه الحكم الجمالي، وهذا كله من أجل تأسيس جمالية بحتة خالصة تهتم أكثر بالنواحي الشكلية الصورية في الموضوع الجمالي لا بمادته ومضمونه.

**الخاتمة:**

بعد تأليف ((كانط)) لكتابه ((نقد ملكة الحكم)) يمكن القول أن المشرع الكانطي شكل ثورة شاملة حاول من خلالها تأسيس نظرية فلسفية كاملة على أسس عقلية صارمة حتى أن البعض صنف فلسفته من الفلسفات النقدية الخالدة، وقد سعى في تجربته الجمالية إلى إنشاء نظرية مستقلة يكون فيها الجميل متره عن مفهوم المحاكاة وعامل التناسق، بعيدا عن عبودية التصورات أو دوافع الرغبة أو إلزميات الأخلاق أو المجتمع، ويصبح علما يهتم بتحديد شروط قيام الحكم الجمالي، التي تميزه عن أي حكم أخر عقلي أو أخلاقي، إنه حكم إستيطيقي من نوع خاص، في لحظته الأولى يأتي حيادي غير متحيز لغرض أو هدف، وفى اللحظة الثانية كلي يحقق الرضا لدى الجميع، رغم أنه ذاتي من جهة أخرى، وفى اللحظة الثالثة نجده ضروري في كونه غير قابل للخروج عن جماليته، وفى اللحظة الرابعة يبـــدي غائية لا غاية لها.

هكذا حددت مسلمات ((كانط)) طبيعة الحكم الجمالي وشكلت تأسيسا ثانيا للإستيطيقا منذ

((باومغرتن)) من حيث أنه جعلت موضوع الجميل مبحثا مستقلا «ليست كل أشكال الإبداع فيه سوى تعبير تقني وهادف لشعور متحرر من كل غائية»[33].

**الهوامش:**

* – هو ألكسندر غوتليب باومغرتن (Alexander Gottlieb Baumgarten 1714 – 1762) تلميذ وولف اشتهر لدى المعاصرين بعد نشره بين 1750 و1758 كتابه "الإستيطيقا" في مجلدين.

1. حميد حمادي، إستيطيقا الحكم..إستيطيقا الإبداع ،أيس، العدد الأول، 2005، رواق الكتاب، الجزائر، ص 63.
2. جميل قاسم، نقد الحكم الجمالي، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 108، 1999، مركز الإنماء القومي، بيروت ص 40.
3. ايمانويل كانط، نقد ملكة الحكم، ترجمة: سعيد الغانمي، الطبعة الأولى، منشورات الجمل، بيروت، 2009 ص15.
4. رمضان الصباغ، كانط ونقد الجميل، د ط، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ص 11.
5. المرجع نفسه، ص 12.
6. المرجع نفسه، ص 10.
7. ايمانويل كانط، المصدر السابق، ص 131.
8. رمضان الصباغ، المرجع السابق، ص 13.
9. جميل قاسم، نقد الحكم الجمالي، المرجع السابق، ص 39.
10. أميرة حلمي مطر، فلسفة الجمال، د ط، دار المعارف، القاهرة، د ت، ص 40.
11. المرجع نفسه، 40.
12. ايمانويل كانط، المصدر السابق، ص 131.
13. المصدر نفسه والمكان.
14. المصدر نفسه، ص 141.
15. المصدر نفسه، ص 132.
16. أميرة حلمي مطر، فلسفة الجمال، مرجع سابق، ص 41.
17. ايمانويل كانط، المصدر السابق، ص 161.
18. المصدر نفسه والمكان.
19. المصدر نفسه والمكان.
20. رمضان الصباغ، كانط ونقد الجميل، مرجع سابق، ص 38.
21. ايمانويل كانط، المصدر السابق، ص 143.
22. رمضان الصباغ، المرجع السابق، ص 40.
23. المرجع نفسه والمكان.
24. ا.نوكس، النظريات الجمالية، ترجمة : محمد شفيق شيا، منشورات بحسون الثقافية، الطبعة الأولى ،بيروت، 1985، ص 58.
25. حميد حمادي، استطيقا الحكم..استطيقا الإبداع، مرجع سابق، ص 64.
26. المرجع نفسه، ص 63.
27. أم الزين بن شيخه السكتي، كانط راهنا أو لإنسان في حدود مجرد العقل، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، المغرب، 2006، ص 151.

28. المرجع نفسه، ص 155.
29. المرجع نفسه والمكان.
30. المرجع نفسه، ص 159.
31. حميد حمادي، المرجع السابق، ص 64.
32. رمضان الصباغ، المرجع السابق، ص 33.
33. حميد حمادي، المرجع السابق، ص 64.